



البنية السردية في رواية (بيبي فاطمة وأبناء الملك)
للشيخ سلطان القاسمي

The Narrative Structure in the Novel 'Bibi Fatima and the King's Sons'
by Sheikh Sultan Al Qasimi

سلامة الشباني، محمد القضاة بن عيسى بطاهر

¹ جامعة الشارقة (الإمارات العربية المتحدة)، salama.alshabani@ese.gov.ae

² جامعة الشارقة (الإمارات العربية المتحدة)، mqudah@sharjah.ac.ae

³ جامعة الشارقة (الإمارات العربية المتحدة)، benissa@sharjah.ac.ae

ملخص:

تحاول هذه الدراسة الكشف عن البنية السردية لرواية (بيبي فاطمة وأبناء الملك) للشيخ سلطان بن محمد القاسمي، وذلك من خلال التركيز على أهم التقنيات التي وظّفها الكاتب في روايته، ومحاولة الكشف عن العناصر الفنية مثل: العتبات، والشخصيات، والأحداث، والزمان، والمكان، مع الإشارة إلى لغة السرد التي مزجت بين الحقيقي والمتخيّل. وقد استندنا في هذا المقاربة إلى المنهج الوصفي التحليلي، متخذين النصّ ومكوناته منطلقاً أساسياً في البحث، وتشكّل هيكل الدراسة من تمهيد يعرف بمضمون الرواية ومصطلحاتها، ومن مبحثين: شمل الأول: مكونات السرد في الرواية، وتناول المبحث الثاني تقنيات السرد في الرواية.

كلمات مفتاحية: الرواية التاريخية؛ بيبي فاطمة؛ السرد؛ التخيل؛ المنهج التحليلي.

Summary:

This study attempts to reveal the narrative structure of the novel (Baby Fatima and the King's Sons) by Sheikh Dr. Sultan bin Muhammad Al-Qasimi,

by focusing on the most important techniques employed by the writer in his novel, and trying to reveal the artistic elements involved such as thresholds, characters, events, time, and place. In this attempt, with referred to the narrative language that mixed reality and fiction. In this approach, we relied on the analytical descriptive approach, taking the text and its two components as a basic starting point in the research. The structure of the study comprises an introduction that defines the content and terminology of the novel, and two sections: the first including the components of narration in the novel, and the second one dealing with narration techniques in the novel.

Keywords: The historical novel; Bibi Fatima; narration; fiction; the analytical approach.

1. مقدمة

تعدّ الرواية التاريخية أحد أقدم أنماط السرد حضوراً في الأدب الإماراتي الحديث، فقد ظهرت مع ظهور النفط في منطقة الخليج، وعلى الرغم من وجود الفن القصصي والشعر النبطي قبل النفط، إلا أنّ ظهور الرواية – بصورة عامّة - رافق تلك التغيرات والتحوّلات التي طرأت على المنطقة قيام الاتحاد سنة 1971م، ويعدّ سلطان بن محمد القاسمي أحد أبرز المهتمين بهذا الجنس الأدبي، فقد صدرت له روايات عديدة منها: الشيخ الأبيض (1996م)، والأمير الثائر (1998م)، والحقّ الدفين (2004م)، وأخيراً ببّي فاطمة وأبناء الملك (2018م).

تصف رواية "ببّي فاطمة وأبناء الملك" أحداثاً حقيقية جرت في القرن السادي عشر الميلادي في مملكة هرمز، التي كانت تحت الوصاية البرتغالية، وتحدثت القصة عن امرأة طموحة تُدعى (ببّي فاطمة)، وهي تتشبّث بحكم ملوك هرمز الزائل في ظل الاحتلال البرتغالي، وشمل المضمون وصفاً تفصيلياً للحياة الاجتماعية في هذه المنطقة، دون إغفال للحياة العسكرية والاقتصادية والسياسية.

تحاول هذه الدراسة الوقوف على البنية السردية لهذه الرواية، وذلك من خلال التركيز على أهمّ التقنيات التي وظّفها الكاتب في روايته، ومحاولة الكشف عن العناصر الفنية مثل: العتبات، والشخصيات، والأحداث، والزمان، والمكان، مع الإشارة إلى لغة السرد التي مزجت بين الحقيقي والمتخيّل.

أمّا عن سبب اختيارنا لهذا الموضوع فراجع إلى قلة الدراسات التي تناولت هذا النصّ الروائي، ومن هنا كان الهدف الرئيس هو محاول الكشف عن تشكليه الفنيّ وفق منهج حديث، ويمكن تلخيص أسئلة الدراسة في النقاط الآتية:

1. كيف وظف الكاتب الحقائق التاريخية في السرد الروائي؟

2. ما التقنيات السردية التي وظفها الكاتب في روايته؟

3. ما الرؤية التي يريد الكاتب تقديمها من خلال روايته؟

وقد تناولت دراسات سابقة جانبًا من هذا الموضوع نذكر منها:

1. دراسة زينب بيرة جكلي، "الفن المسرحي والروائي عند صاحب السمو الشيخ سلطان القاسمي" (2009م)، وقد تناولت بالتحليل مضامين هذه الأعمال الأدبية مع الإشارة المقتضبة إلى خصائصها الفنية.

2. دراسة بن عيسى بطاهر "روايات الشيخ سلطان القاسمي: دراسة نقدية تحليلية"، وقد كشف فيها عن بعض الجوانب الفنية التي تميّزت بها كتابات الشيخ سلطان القاسمي في فنّ الرواية.

3. دراسة فاطمة خليفة "الرومانسية التاريخية في روايات سلطان القاسمي"، وقد أشارت فيها إلى التشكيل الفني في رواية الشيخ الأبيض. ولعلّ أبرز ما يميّز دراستنا هذه أنّها دراسة نقدية تحليلية لعناصر السرد وتقنياته الحديثة في رواية "بيبي فاطمة وأبناء الملك".

وقد استندنا في هذا المقاربة إلى المنهج الوصفي التحليلي، متخذين النصّ ومكوناته منطلقًا أساسيًا في البحث، وتشكّل هيكل الدراسة من تمهيد يعرّف بمضمون الرواية ومصطلحاتها، ومن مبحثين: شمل الأول: مكونات السرد في الرواية، واحتوى على بنية الشخصيات، والأحداث، والزمان، والمكان، وتناول المبحث الثاني تقنيات السرد في الرواية، واحتوى على العتبات، وبداية الرواية ونهايتها، ولغة السرد.

2. تمهيد:

2.1. ملخص الرواية:

يعدّ سلطان بن محمد القاسمي¹ أحد أبرز المؤرخين والأدباء الروائيين في منطقة الخليج العربي، وقد اشتهرت كتاباته بالحرص الشديد على توثيق المادة التاريخية بطريقة روائية مبسطة، وأغلب روايته — كما أشار إلى ذلك — مستمدة من مصادر تاريخية موثوقة، فرواية

"بيبي فاطمة وأبناء الملك" التي صدرت سنة ألفين وثمانين عشرة (2018م) كتبها اعتماداً على خمسة وثلاثين (35) مرجعاً تاريخياً أغلبها من المصادر الأجنبية الأصيلة، وتقوم الرواية على بطلتها اسمها (بيبي فاطمة)، التي كانت تعيش في كنف الأسرة المالكة لمملكة هرمز، وتصوّر أحداث هذه الرواية المراحل الأخيرة لزوال هذه المملكة، بسبب النزاعات الداخلية والقوى الخارجية الاستعمارية البرتغالية والإنجليزية التي هيمنت على المنطقة، وقد لخص الكاتب مضمون الرواية بقوله: "هذه رواية تحكي قصة امرأة طموحة، تتشبث بحكم ملوك هرمز الزائل في ظل الاحتلال البرتغالي لمملكة هرمز. مع عدم إغفال الأوضاع العسكرية والسياسية والاقتصادية، فقد تمّ ذكرها دون تفصيل، حتى لا ننساق وراءها، فنخرج من سياق الرواية"².

2.2. البنية السردية: المفهوم اللغوي والاصطلاحي.

يعدُّ السرد وسيلة مهمة يستخدمها المؤلف للوصول إلى غاية العمل الأدبي الذي يقوم به، سواء كان قصة أو رواية، فالسرد يقوم بتحويل الكلام إلى عمل فني يقوم بنقل الحدث من صورته في الواقع إلى صورة مكتوبة أو منطوقة، فهو من أهم مميزات النص الروائي، ويدور مفهومه اللغوي حول "تقدمة شيء إلى شيء، تأتي به متسقاً بعضه في أثر بعض متتابعاً، يقال: سرد الحديث ونحوه يسرده سرّاً إذا تابعه، وفلان يسرد الحديث سرّاً إذا كان جيد السياق له"³.

يدور مفهوم السرد حول الكيفية التي تروي بها القصة عن طريق القناة نفسها، وما تخضع له من مؤثرات، بعضها متعلق بالراوي والمروي له،⁴ ويرى جيرالد برنس (Gerald Prince) في كتابه قاموس السرديات، أن السرد متعدّد المفاهيم ويدلّ في عمومته على: "إنتاج حكاية؛ وسرد مجموعة من المواقف والأحداث"⁵؛ أي أنّه عبارة عن حكاية مشتملة على مواقف وحوارات وشخصيات جسدت تلك الأحداث. ويرى سعيد يقطين أنّ السرد فعل لا حدود له يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء أدبية أو غير أدبية، يبدعه الإنسان أينما وجد وحيثما كان.⁶

كما اهتم الباحثون بالسارد أي الراوي الذي يروي القصة؛ إذ عليه إقناع القارئ كي يستطيع أن ينال ثقته، "فالسارد ومنذ البداية يوهم بالصدق، يسرد ما يوازي العالم الخارجي، مع إيضاح التميز اعتماداً على الرؤية المنطلق منها، ومن ثم فالإقناع عبر المسيرة السردية هو هدف الروائي، يمكن القول في هذا أن السارد فنان على غرار الفنان ذاته"⁷.

وتُعد الرؤية السردية إحدى أهم مكونات الخطاب الروائي؛ فهي توضح علاقة السارد بالعمل الأدبي، إضافة إلى اهتمامها بمكونات الخطاب السردية: الراوي والقصة والمروي له، وقد عزف تودوروف الرؤية السردية بأنها "الكيفية التي يتم بها إدراك القصة من طرف السارد"⁸، وقد تكون الرؤية من الخلف؛ وهذا النوع يشير إلى أن السارد لديه معلومات حول أحداث العمل الروائي أكثر من الشخصيات داخل العمل، بما فيهم البطل نفسه؛ "ويكون فيها الراوي عارفاً أكثر مما تعرفه الشخصية الحكائية، وأنه يستطيع أن يصل إلى كل المشاهد عبر جدران المنازل، كما أنه يستطيع أن يدرك ما يدور بخلد الأبطال"⁹. وقد تكون الرؤية مع؛ وتعرف بالرؤية السردية المصاحبة، أو الرؤية بالتساوي، ويكون السارد على علم بالشخصية الروائية، وتكون مساوية له، فلا يقدم لنا تبريرات أو تفسيرات إلا بعد أن تصل بها الشخصية، ويمكن أن يتحول السرد من الضمير الغائب إلى الضمير المتكلم، ويستطيع السارد أن يلقي الضوء بصورة عمودية على أحداث القصة، "وتكون معرفة الراوي هنا على قدر معرفة الشخصية الروائية"¹⁰. وقد تكون الرؤية من الخارج؛ ويكون السارد فيها أقل معرفة بالشخصية الحكائية مهما كان دورها ثانوياً، وهو بذلك لا يمكنه وصف إلا ما سمعه أو رآه، ويرى تودوروف "أن جهل الراوي شبه التام هنا، ليس إلا أمراً اتفاقياً، وإلا فإن حكياً من هذا النوع لا يمكن فهمه"¹¹، ونجد الراوي لا يفسر المواقف ولا يفصح عن الشخصيات، ولا عن مشاعرهما، ولا أبعد عن ذلك، فنجد القارئ يجتهد ليجد تفسيرات للرواية ولمواقف الشخصيات، وقد تصل الأحداث إلى نهايات قد لا تكون متوقعة.

3. المبحث الأول: مكونات السرد في رواية (بيبي فاطمة)

3.1. بنية الشخصية:

إن القيمة التي تعكسها الرواية التاريخية التي لا تتوقف عن تزويد القارئ بالمعلومات والأحداث التاريخية فقط، بل من خلال ما تقدمه الرواية من قناعات الراوي في الأشياء، ويظهر ذلك جلياً بمواقف رسمه للشخصيات، وأحداث الرواية التي تصوغ الأحداث والصراعات إلى نهايتها، ويقدم الكاتب شخصيات الرواية وفق أهميتها، ورؤيته التي يهدف إليها من الرواية، كما سعى إلى تصوير الشخصيات وتفسير دوافعها، التي جعلت الأحداث تتأزم ثم تنفج مع انفراج العقدة.

ثمة نوعان من الشخصيات ظهرت في الرواية بصورة واضحة، النوع الأول: الشخصيات الحاكمة وأبناء المنطقة، والشخصيات الاستعمارية، وأمّا الشخصية الرئيسة

في الرواية فهي شخصية (بيبي فاطمة)، التي تبدأ حكايتها منذ كان عمرها أربعة أعوام، وقد كانت محبوبة من جميع الناس، من أبيها ريس الدين الذي يسميها حبيبة فاطمة، والبرتغاليين الذين أسموها (بيبي فاطمة)، "أما سيدة النساء فقد ولدت لريس نور الدين بنتاً جميلة، وهي في السنة الرابعة من عمرها، وتدعى فاطمة، ويناديها والدها حبيبة نور الدين، والأفيخرون ينادونها حبيبة فاطمة، والأجانب ينادونها بيبي فاطمة، فسرت عليها تلك التسمية"¹²، وتتنامى القصة بعد زواج أمها سيدة النساء من فروغ شاه، حيث أصبحت أميرة من أميرات القصر، وأصبحت مطمع زواج من فيروز شاه، بعد الصراعات الداخلية بين الأخوة على حكم هرمز وبعد هرم والدهم، لكن أخذت الرواية تتأزم حين غيرت بيبي فاطمة من ديانتها إلى الديانة المسيحية، وأصبحت حديث المملكة، فكيف ترتد حفيدة رسول الله؟! ولكن هذا التحويل إنما جاء حيلة كي لا تتزوج من فيروز شاه، "إلا أن بيبي فاطمة بيّنت أن ادعاءها باعتراف المسيحية ما كان إلا حيلة للتخلص من ذلك الزواج الذي كانت رافضة له"¹³.

و"تتجلى شخصية بيبي فاطمة في السرد الروائي بصورة مأساوية بعد إعدام زوجها توران شاه حرقاً أمام أعين الناس في مدينة غوا"¹⁴، وعندما صاحت بأعلى صوتها بأنها حفيدة رسول الله، وهي تحمل المصحف في يدها، وخلفها أولادها الثلاثة، ثم يتأزم الموقف المأساوي عندما صعدت على المنصة لتجمع رماد زوجها، فقد قام الكاتب بتصوير الموقف، لتظهر مظاهر الحزن والإخلاص والتمسك بالدين في إمساك المصحف في يدها ورفعها، وكأنها تريد من خلال الموقف التأكيد على أنها مسلمة، وأنها لم تكن مسيحية قط ولن تكون. ثم تأكد موقف الإخلاص منها عندما كان زوجها (محمد شاه) في السجن، وانتظرت كالطود الشامخ حتى تم أمر العفو عنه.

وتتضمن الرواية في تطور حراكها السردية دخول شخصيات جديدة، وتفعيل شخصيات أخرى أغلبها شخصيات مسطحة، بما يتلاءم مع تطور بنية الحدث السردية، وهو يقتضي بطبيعة الحال تغيرات في الزمن والمكان، فجاءت الشخصيات الأخرى سطحية، وساعدت الشخصية الرئيسة على السطوع والظهور، منها أبوها (ريس الدين) حين أظهر حبه لابنته وقد سمّاها حبيبة نور الدين، وشخصية (فيروز شاه) الذي لم يكن مقبولاً من الأسرة الحاكمة لوضع أمّه وأنه ابن أمة، الأمر الذي جعل بيبي فاطمة تهرب من المملكة، وتتنصر هرباً من زواج غير متكافئ في نظرها ونظر أمها سيّدة النساء، أمّا أمها سيدة النساء

هي شخصية قوية ولها مكانتها في المجتمع، وساعدت ابنتها في التحلي بالقوة، وأيضاً ساعدتها على الزواج من توران شاه، كما أهدتها التاج وبعض المجوهرات.

وتأتي شخصية قائد الجيش البرتغالي (ماتياس دي البوكيرك) الذي لم يكن عمله الإشراف على الجيش فقط، وإنما في محاولة تنصير الشباب، فهو "الذي كان يحاور الشباب خاصة، ويحاول أن يدخلهم في الديانة المسيحية"¹⁵، وقد تنصر على يديه (دلمتشي مراد) بعد أن وعده أن يصبح وزيراً لمملكة هرمز، وأيضاً أخته حليلة وفي الأخير بيبي فاطمة.

وتأتي شخصيات أخرى ثانوية مثل: أهالي المنطقة وأبنائها، وبعض ملوك المناطق المجاورة، "وأما بقية الشخصيات فهي شخصيات ثانوية، يأتي ذكرها لتوثيق الحدث التاريخي، ومن أمثلتها شخصية سيدة النساء وهي أم بيبي فاطمة، وأبوها ريس نورالدين، وإخوانها وأولادها، وحكام المناطق الأخرى خارج مملكة هرمز"¹⁶. وبجانب آخر على ما يحكم رحلة الرواية من الزمان والمكان، إلى الوصف الموضوعي الذي يتعلق بطبيعة العلاقات السياسية بين الشعوب، الذي يستجيب للمناخ السياسي السائد في تلك الفترة. ومن أمثلة ذلك وصفه لشخصية الملك (فروغ شاه)، "صاحب السمعة السيئة لدى أهالي هرمز، حيث أطاع البرتغاليين بمطالبهم، وهي القيام بهدم جميع المساكن التي كان يقيم فيها أتباعه المقربون إليه، والتي كانت بالقرب من القلعة البرتغالية، وفي نفس الوقت أمر بهدم بعض قصوره الفاخرة، التي كانت بجوار القلعة، حتى لا تصيب القلعة أية أضرار بسبب قربها من تلك القصور والمساكن"¹⁷.

3.2. بنية الحدث

عندما قراءة الرواية ترى التاريخ مسطراً فيها بقالب شائق وفق العناصر الفنية، ومما لا شك فيه أن هدف الكاتب هو إظهار تاريخ المنطقة وما مرت به من صراعات، وإبراز الهوية القومية، الاعتزاز بالأجداد والشخصيات التي حافظت على المنطقة، و"إن هذا النص بصورته الفنية مختلف تمام الاختلاف عن صورته في المصادر التاريخية؛ فأحداث هذه القصة مبعثرة في تلك المصادر، فضلاً عن أنها معروضة بطريقة وثائقية تسجيلية، وما قام به المؤلف هو إعادة تشكيل أحداث هذه القصة بصورة فنية، يتجلى من خلال وضع تصور كامل لهذا العمل قائم على بداية وتسلسل للأحداث وصولاً إلى نهاية غير متوقعة، وهنا يكون لخيال الأديب الوظيفة الكبرى في إعادة التشكيل"¹⁸.

بدأ الكاتب بعرض مقدمة عن مدينة هرمز وموقعها الجغرافي وأهميتها بالنسبة للتجارة البحرية، على الرغم من شح المنطقة في النبات والأشجار، وعدم كثرة آبار المياه، إلا أن مدينة هرمز فيها أكبر مركز تجاري وميناء بحري، إضافة إلى الميناء العسكري الذي يخدم الجيش البرتغالي، "مدينة هرمز هي أشهر مركز تجاري وميناء بحري في العالم"¹⁹؛ فهي تزود شبه جزيرة العرب والهند والفرس بالمؤن بحكم موقعها المتوسط في عرض البحر، وبذلك أصبحت مطمئناً لملوك البرتغال، وفيما بعد للإنجليز.

كما كشفت الرواية عن أعداد أهل البلاد والمقيمين فيها حيث بلغ عددهم سبعة آلاف نسمة، وحوالي مئتين من البرتغاليين، كما كانت أعداد المسلمين والهنود وبعض التجار الذين يذهبون بتجارته يفوق أربعين ألف نسمة، وهذا يدل على وجود تجارة عالمية في هذه المنطقة، وقد أصبح ملوك هرمز أتباعاً للجيش البرتغالي بموجب (الفرمان) في إهداء مركز الجمارك إلى ملك البرتغال، وقد منع البرتغاليون امتلاك الناس للأسلحة، فهي خاصة بالجيش البرتغالي فقط، وتكون لحراس القصر تحديداً، كما كان لوجود الكنائس والمعابد وكثرة عددها إشارة إلى التجانس الديني بين أفراد المجتمع، وتمتاز مدينة هرمز بالميناء الذي يجلب كميات من الحرير والسجاد من الفرس، وأيضا الفضة والسبائك المعدنية من البصرة، وجميع السلع التي تأتي من الهند تصل إلى هرمز ثم يتم توزيعها على بلدان العالم منها سوريا والبصرة وشبه الجزيرة العربية والفرس، وتستخدم بعض العملات البرتغالية والهندية.

تبدأ أحداث الرواية بالحديث عن الملك فروغ شاه عام 1588م، وكان لديه ثلاثة من الأبناء، واستولى على الحكم بعد صراعات مع عمه جاويد، وكان لفروغ شاه أبناء وابن من أمة اسمه فيروز، وكان للملك فروغ شاه وزير اسمه ريس الدين، وقد تزوج ريس الدين من سيدة النساء التي كان لها بنتا اسمها حليلة، وولداً اسمه مراد من زوجها السابق قبل الزواج من ريس الدين، وأنجبت لريس الدين بنتاً اسمها فاطمة، وكانت تسمى حبيبة نور الدين، والأجانب ينادونها بببي فاطمة وأصبحت تسري عليها هذه التسمية.

كان للتبشير بالمسيحية دور كبير في المنطقة وخاصة بين الأمراء، بعد وعود قطعها (ماتياس دي البوكيرك) بأن يجعل من (مراد) وزيراً لمدينة هرمز إذا تحوّل إلى الديانة المسيحية، ووجد قبولا منه ومن أخته حليلة وصارا يأخذان دروساً في النصرانية، وتمادى الوضع في أن (ماتياس) تقدم لخطبة حليلة مما أدى إلى غضب الملك ورفضه، ثم زُوجت

حليمة من رجل لا تحبه واستنجدت بالكنيسة، وتم ترحيلها من المدينة، لكن ما لبثت أن مرضت حليمة ورمي جثمانها في البحر.

عندما كبرت فاطمة وأصبحت مطمعا لفيروز شاه، بعد أن أصبح ملك هرمز بموافقة من نائب ملك البرتغال، وبما أن أمه أمة؛ فقد كان موضع استحغار من الأسرة الحاكمة؛ لذا رفضته فاطمة، ولكن تم الزواج رغم رفض بيبي فاطمة واحتالت حيلة ذكية في تحويل ديانتها إلى المسيحية لكي تتفلس من هذا الزواج، بعد أن تم تهريبها من القصر بمساعدة من البرتغاليين، "ومع الشاب كمرشد، دخلوا من خلال بوابة بيت الوزير الذي أبعد، وأُشغل بمسألة حفظ الميناء. وصعدا الدرج حتى وصلا إلى مدخل غرفة. مكثا هناك في الظلام، حيث أعطي الشاب رسالة إلى بيبي فاطمة، التي بمجرد أن تسلمتها. جاءت بمفردها باحثة عن المكان، حيث كانا ينتظران، وطالبة القائد العسكري. وعندما ظهرت منذهلة كما تطلبت المناسبة، صعدت إليه ولمست يده اليمنى لكي تتحسس فيما إذا كان أحد أصابعه مفقوداً، وهو الشيء الذي يميز هويته الحقيقية. وجدت ما كانت تبحث عنه، وأدركت اقتراب نهاية رغباتها"²⁰، مما أثار غضب فيروز شاه ثم ما لبث أن طلقها.

تزوج (توران شاه) من (بيبي فاطمة) على الطريقة الإسلامية، لكن ذلك أثار غضب الأساقفة، وهذا الزواج تأكيد من بيبي فاطمة أن تحولها للمسيحية كان ذريعة للتخلص من الزواج بفيروز شاه، وفي عام 1606م اتهم (توران شاه) باتهامات أدت به إلى زجه في السجن، وحكم عليه بالإعدام، على الرغم من رفض المجتمع والأسرة تمّ تنفيذ الحكم، وحكم (محمد شاه) مملكة هرمز بعد وفاة أخيه (فيروز شاه)، وسط فرح وأهازيج أهل المنطقة، وتزوج (محمد شاه) بيبي فاطمة، وعادت بيبي فاطمة إلى مملكة هرمز.

وفي وسط السوق ظهر خدم بيبي فاطمة وخدم بنات فيروز شاه، واختلف البائع فيمن يبيع أولاً، فأشارت الخادمة أنهم أحرار، وهؤلاء بالعبيد وتقصد فيروز شاه وأن أمه أمة، ثم أشارت الأخريات بأن هؤلاء نصارى وهم مسلمون، وتقصد بالنصاري (حليمة ومراد وفاطمة)، فثارت ضجة كبيرة على أثرها علمت بيبي فاطمة بما ما ثار بين الخدم من الضرب حتى سالت الدماء وأرسلن إلى السجن.

مرت السنون حتى بدأ الإنجليز بغزو المنطقة، وسقطت القلعة في يد الإنجليز، وانسحب الجيش البرتغالي، ثم سيقّت الأسرة المالكة إلى بلاد الفرس، وتم وضع (محمد شاه) في

السجن، وبقيت (بيبي فاطمة) كالطود الشامخ مع ابنهما تنتظر خروج (محمد شاه) زوجها من السجن، الذي منح العفو بعد عشر سنوات.

3.3. بنية الزمن

يعدّ الزمن عنصراً مهماً من عناصر السرد الأدبي، وهو زمن التجارب التي صاحبت الكاتب، والأحداث التي لازمته، وهو زمن افتراضي غير واقعي، ويساعد في فهم العمل الأدبي، فعُد سيد الرواية وقوة الجذب بها، وقد شغل كثير من النقاد المعاصرين بالبحث في ماهية الزمن، فبعضهم يراه حقيقة وبعضهم يراه وهم، كما ذكر مرتاض أنّ "الزمن مظهر وهي يزمن الأحياء والأشياء فتتأثر بماضيه الوهمي، غير المرئي، غير المحسوس. والزمن كالأكسجين يعايشنا في كل لحظة من حياتنا، وفي كل مكان من حركاتنا؛ غير أننا لا نحس به، ولا نستطيع أن نتلمسه، ولا أن نراه، ولا أن نسمع حركته الوهمية على كل حال"²¹.

تتجلى الفترة الزمنية في الأحداث والمواقف وانفعالات الشخصيات، فالراوي يروي لنا رواية في زمن معين وهو زمن حكم البرتغال في المنطقة، وذكر شخصية من شخصيات الرواية (بيبي فاطمة) التي تكبر وتكبر معها الأحداث، وإن اعتماد الكاتب على خط سير زمن الطفلة (بيبي فاطمة) بالترتيب حتى كبرت، إنما هو ذكر زمن تلك الفترة التي حدثت فيها الصراعات في المنطقة، الصراعات الداخلية والصراعات الخارجية المتمثلة في القوى الاستعمارية التي فرضت سيطرتها على تلك المنطقة، والصراعات الداخلية في الاستيلاء على الحكم، وبسبب غلبة السرد التاريخي على الأحداث، وقلة مساحة التخيل التي وظفها الكاتب في البنية السردية، ومع ذلك كله فقد أسهم الزمن في البناء المنطقي الداخلي للرواية؛ حيث جاءت الأحداث التاريخية متسلسلة تسلسلاً تصاعدياً، يحفز القارئ على تتبع تلك الأحداث بتفاصيلها الدقيقة، ومعرفة خاتمتها غير المتوقعة²².

فقد رصد الكاتب بداية روايته عام 1588، وكان الملك سلغور شاه يحكم المنطقة، وبعد وفاته استولى فروغ شاه على الحكم بعد صراع مع إخوته، وهذا يدل على الصراعات الأزلية في المنطقة وهي صراعات داخلية بين الأخوة، ولأسباب حتمية وهي الحكم، ثم تأتي الأحداث وفق تسلسل زمني وصولاً إلى الشخصية الرئيسة، التي بدت الأحداث معها تتأزم، وتُظهر علاقة الرواية بالتاريخ، ولا يظن القارئ أنه سيتأكد من صحة الرواية بالعودة إلى صفحات التاريخ؛ لأن الكاتب أكد في مقدمته بأن الأحداث والشخصيات حقيقية، فالتاريخ حقيقي ولا مجال للشك في محاولة التأكد من صحته، وتمتد هذه الصراعات طوال فترة

الرواية، بين أحلام استعادة أمجاد الأسرة الحاكمة، وبين انكسار هذه الأحلام، وتنتهي هذه الرحلة إلى تمزق وغربة واقتتال داخل هذه الأسرة.

تبدو علاقة الزمن بالشخصيات علاقة قوية بالشكل الروائي، ومنسجمة انسجاماً تاماً؛ بحيث لم تبعث الرتبة في نفس القارئ، ولم تكن مادة تاريخية جافة، إنما جاءت الرواية وفق تسلسلها الزمني الذي جعلها تصل مع تشابك الأحداث وتأزمها إلى الذروة وصولاً إلى القارئ في مرحلة التشويق، ومتابعة الأحداث لمعرفة نهاية ومصير الشخصيات التي باتت تقلق الأمة العربية بتحريك مشاعر القارئ بالقومية العربية.

أشارت الرواية إلى الزمن الذي استولى فيه الملك فروغ شاه على الحكم، كما أشارت إلى الأحداث السياسية التي هيمنت على المنطقة وفق ترتيبها الزمني، وبذلك راعى الكاتب ذهنية القارئ الذي تعود على ترتيب الأحداث وفق الزمن، لما له من تأثير على عواطف القارئ ووجدانه، وقد بدأ زمن الرواية بذكر "تم إهداء مركز الجمارك إلى ملك البرتغال. وحتى قبل قيام ملوك هرمز بإهداء مركز الجمارك إلى ملوك البرتغال، كان مركز الجمارك هذا يؤول للآخرين بطريقة الإيجار، وذلك بعدما أصبح ملوك هرمز أتباعاً للبرتغال بقوة السلاح. وحتى بعدما قاموا بالثورة مجدداً، تمكن (أفونسو دي البوكيرك) من هزيمتهم مرة أخرى عام 1514م"²³.

وهذا يبين أن الزمن الروائي يبدأ مع هيمنة البرتغاليين على الحياة السياسية والاقتصادية على المنطقة، وأن ملوك هرمز مجرد أتباع لملوك البرتغال، فقد أصبح ملوك هرمز والسكان المحليون يدينون بالولاء والطاعة إلى ملوك البرتغال. كما كان الزمن حضور قوي في الحياة الدينية والثقافية، فقد كان لكل طائفة دينية إجازة أسبوعية، و"غالباً يكون كل يوم في الأسبوع عيداً أو إجازة، فالمسيحيون يستريحون يوم الأحد، والوثنيون يجلسون الراما في يوم الثلاثاء، والمسلمون يستريحون يوم الجمعة، واليهود راحتهم يوم السبت"²⁴. وفي ذلك دلالة على التنوع الثقافي والديني في هذه المنطقة.

وتبدأ المرحلة الزمنية تحديداً بعد وفاة (سلغور شاه)، وبعدها حكم ابنه (توران شاه) الذي توفي سنة 1563م، وبعد وفاته دبت الصراعات، حينما حكم (محمد بن توران شاه) ولكن ما لبث أن توفي، وهنا يجب أن يخلفه أخاه أجاويد، لكن (فروغ شاه بن محمد) استولى على الحكم والسلطة، وأبعد عمه واستولى على أمواله بحجة أنها أموال الدولة، ثم توفي (أجاويد)، وأخذ ابنه يطالب بالممتلكات الخاصة بوالده الذي رفع قضية ضد ملك هرمز،

توالى الأحداث حتى ظهرت حركة التنصير على يد (ماتياس دي البوكيرك) الذي تنصرت على يديه حليلة وأخوها مراد وأمهما (شاه زنان) زوجة (الريس نور الدين) وزير الملك، في عام 1591م توفي الوزير وخلا منصب الوزير، وقد أصبح مراد، وسَيَّ (أفونسو ديلميتشي) وزيراً بعد أن زوّج والدته ملك هرمز، ثم ما لبث أن تردت أوضاع الملك (فروغ شاه) الصحية، ودب الخلاف بين الإخوة حول من يرث العرش، وتسلم ابنه (فيروز شاه) السلطة، وكان الملك في حياته في مرات كثيرة لا يعترف به؛ لأنه ابن أمة.

وفي عام 1601م سيطر (فيروز شاه) على المملكة، ورغب في الزواج من (بيبي فاطمة)، لكن أمها رفضت إتمام هذا الزواج؛ حيث كانت ترى أنه زواج غير متكافئ، ولكن مع الإلحاح تزوج (فيروز شاه) بيبي فاطمة، ولكن ما لبثت أن هربت مع شخص كان يعلمها اللغة البرتغالية، مدعية أنها تريد التنصر ظاهرياً، ولكنها في الواقع كانت تحاول الفرار من هذا الزواج. "في ربيع عام 1601م، عاشت مدينة هرمز على ترديد أن حفيذة رسول الله أصبحت مسيحية، فما كان من الأمير (فيروز شاه) أن طلق بيبي فاطمة"²⁵.

جاء فيروز شاه سيدة النساء والددة فاطمة مما لديها من أموال ومجوهرات، كما جرد أخاها من منصب وزير الدولة، ثم ما لبثت سيدة النساء أن هربت إلى ابنتها في غوا، ثم زوجت ابنتها من (توران شاه) الذي كان يطالب بولاية هرمز خلفاً لأبيه فروغ شاه، لكن ما لبث أن حكم عليه بالموت حرقاً بسبب تهمة اللواط، رغم أنه لا توجد أدلة على ذلك، وعلى مدى سنة من مرافعة الدفاع، حيث لا توجد أدلة على ذلك الاتهام، استطاع رئيس الأساقفة في غوا، وكان حاكم الهند بالإنابة، أن يفرض على القضاة الحكم الذي كان يريده، وحكمت المحكمة العليا على الأمير (توران شاه) بالموت حرقاً"²⁶.

وفي عام 1609م توفي الملك (فيروز شاه)، وقد أرسل إلى الأمير محمد شاه بالحضور واستلام الحكم، ما لبث أن عين ملكاً عليها، وقد تزوج من بيبي فاطمة فور حضورها إلى مدينة هرمز، وفي عام 1614م احتلت القوات الفارسية قلعة (غمرون) بالقرب من هرمز، وفي عام 1616 بدأ الخلاف بين بيبي فاطمة وزوجها من ناحية، وبين (ريس الدين) الوزير وأختيه العانستين في السوق بين خدم الطرفين؛ حيث عيرت واحدة بالعبيد والأخرى عيرت بالكفار، وتقصد بالكفار اعتناق بيبي فاطمة وأمها النصرانية، فغضبت بيبي فاطمة وأرسلت خادمتها لضرب الخادمت الأخرى، ثم أرسلن إلى المحكمة لحل النزاع، "ويختلف الخدم على من يشتري أولاً. فقالت إحدى خادمت الملكة بيبي فاطمة لصاحب المحل: لمن

تريد أن تبيع؟ نحن الملوك، وهؤلاء العبيد! وكانت تقصد أنهم تابعات للملكة بيبي فاطمة، أما الأخريات تابعات أبناء فيروز شاه ابن العبد. ردت إحدى الخاديمات بنات ريس شرف، قائلة: لمن تريد أن تبيع، نحن المسلمون، وهؤلاء نصارى؟!²⁷.

وفي عام 1622م انتهز البريطانيون غفلة البرتغاليين بالصراعات الدائرة في المدينة، فأنزلوا قواتهم على الجزيرة، واستولوا على القلاع، و"سلم البرتغاليون القلعة للإنجليز في الثالث من شهر مايو عام 1622م، ودخلوا عبر الأجزاء المتهمة من الجدار. بعد أن وعدوا بالحفاظ على أرواحهم"²⁸، ثم ما لبث أن وضع الملك (محمد شاه) في السجن حتى كبر وشاخ.

وواضح أنّ الرواية قائمة على ما يُسمّى بـ "الزمن الكرونولوجي"؛ وذلك حين يحدّد الزمن بالوقت أو التاريخ أو اليوم، وغيرها من الدلالات الواضحة للفت الانتباه نحو تلك الفترة، أو مساعدة القارئ على ربط الأحداث المتشابهة، ولمزيد من الواقعية التي تشي بها الرواية²⁹، و"بسبب غلبة السرد التاريخي على الأحداث، وقلّة مساحة التخيل التي وظفها الكاتب في البنية السردية، ومع ذلك كلّها فقد أسهم الزمن في البناء المنطقي الداخلي للرواية؛ حيث جاءت الأحداث التاريخية متسلسلة تسلسلاً تصاعدياً، يحقّز القارئ على تتبع تلك الأحداث بتفاصيلها الدقيقة، ومعرفة خاتمها غير المتوقعة"³⁰، كثيراً ما يستعمل الكاتب تقنيات الوقف والاختزال في الزمن الروائي³¹؛ ويبدو أنّه وظّف الوقف في حديثه عن الشخصية الرئيسة بيبي فاطمة، فأشار إليها في الفصل الثاني والثالث من خلال لمحات سريعة، ثمّ توقف، ولم يتحدّث عنها بصورة تفصيلية إلّا في الفصل الرابع وما بعده من فصول، أمّا الاختزال فيتمثّل في تسجيل أحداث كثيرة تجري في سنوات، يسجلها في سطور، ويظهر ذلك في أحداث الرواية كلّها التي غلب عليها طابع اختزال فترات زمنية طويلة مع التركيز على الأحداث المهمّة التي جرت فيها.

3.4. بنية المكان

يعد المكان واحداً من أهم عناصر التشكيل السردية في الرواية، ويشير حسن بحراوي إلى أنّه "بوسع الخطاب الروائي أن يعرض علينا المكان سواء بشكل مجزأ ومفكك حين يستعمل وجهة النظر المتقطعة، أو على نحو موحد واشتمالي، إذ كانت الرؤية متسعة وموتورة، وفي كلتا الحالتين سيكون المنظور السردية للمكان هو المتحكم في بناء الفضاء وإعطائه طابعه المميز"³².

وقد حاول الكاتب إظهار هذا المكان (هرمز) في طابع جميل من ناحية العمران والحركة الاقتصادية، كما تبدو أهمية المكان من نواح عدة: سياسية وجغرافية وثقافية، فالموقع هو منتصف الخليج العربي، حيث يوجد ميناء عسكري يوجد به مصنع لصنع البارود يخص الجيش البرتغالي، إضافة إلى الميناء التجاري وهو يحتل أهمية كبيرة، و"يوجد في هرمز أكبر ميناء في الشرق كله"³³.

يمتلك ملك البرتغال في هذا الفضاء المكاني "مركز الجمارك في هرمز، وقد تم إهداؤه إلى ملوك البرتغاليين في هرمز، وذلك وفق الإعلان الذي ورد في اثنين من الفرامانات، والتي بموجبها تم إهداء مركز الجمارك إلى ملوك البرتغال. وحتى قبل قيام ملوك هرمز بإهداء مركز الجمارك إلى ملوك البرتغال، كان مركز الجمارك هذا يؤول للأخيرين بطريقة الإيجار"³⁴، كما ذكر الكاتب أهمية الميناء التجاري رغم شح المكان حيث لا يمكن أن ترى أي شجر أخضر ينمو بشكل طبيعي، "لا يوجد فيها أي فرع أخضر واحد ينمو بشكل طبيعي"³⁵، لكن يوجد العديد من السلع التي تأتي من بلاد الهند وبلاد فارس والبصرة وسوريا، فقد تأخذ العديد من الخيول العربية لتذهب بها إلى تجار الهند، كما تحمل السفن أنواع المنسوجات من بلاد الفرس، وتعد هرمز كالمخزن الكبير تأتيا البضائع من جميع البلدان، لتنتقل إلى بلاد أخرى، "مدينة هرمز هي أشهر مركز تجاري وميناء بحري في العالم، وتوجد فيها ملتقيات وتجارة أكثر مما في جميع أسواق الشرق والغرب، وفيها ميناء كبير لجميع الخيول، والتي يتم نقلها من شبه جزيرة العرب وفارس إلى جميع أنحاء الهند"³⁶.

يوجد عدة قلاع في مملكة هرمز أهمها قلعة البرتغاليين، "بالإضافة إلى اعتبار حقيقة ملوك هرمز أتباعاً لملوك البرتغال، ووجود قلعة برتغالية هناك، فإن ملوك هرمز غير مسموح لهم بامتلاك الأسلحة، ولذلك لم يتمكن ملوك هرمز من إبقاء البحر مفتوحاً أمام التجار الذين يأتون ببضائعهم ويدفعون الرسوم في الميناء. ولعل السبب الأساسي الذي يجعل الملوك يرفضون الرسوم في مراكز الجمارك هو اضطرابهم لإبقاء البحار مفتوحة أمام التجار، وتوفير أسطول قوي لكبح حركة القرصنة في البر والبحر"³⁷.

ثم يسلط الضوء على مجلس النساء وما تزخر به سيدة النساء في مجلسها، فهي تجلس على الكرسي وتلبس التاج وتستقبل كل من زارها بالهدايا مدعية بأنها من إرث زوجها إلا أنها من دخل جمارك هرمز، "أما سيدة النساء، فقد تربعت على العرش، وابنتها فاطمة بالقرب منها، وقد اتخذت لنفسها مجلساً، ووضعت على رأسها تاجاً، وليست أئمن الملابس

وأجملها، وجلست على كرسي كأنه العرش، واستقبلت سيدات المجتمع الهرمزي، وزوار جزيرة هرمز، وكانت تصرف الأموال من دخل جمارك هرمز، والتي كان ابنها أفونسو ديلميتشي يستلمها من الجمارك، مدعية أنها غنية بما ورثته من زوجها نور الدين، وكذلك ما ورثته من زوجها السابق مراد ديلميتشي، فكانت تقدم الهدايا لكل ن زارها، ولذلك كان مجلسها عامراً³⁸.

ويشير الكاتب إلى وجود الأماكن الدينية التي تدلّ عن تنوّع النسيج الثقافي والديني في المدينة، "فيوجد على الجزيرة العديد من كنائس المسيحيين، ومساجد المسلمين، من بينها المسجد الكبير بمئذنته الكبيرة الملفتة للأنظار، وكنيس اليهود، وباغودات الوثنيين"³⁹، كما كان لوجود منصة لحرق الناس أثر كبير في القارئ؛ حيث يصور الكاتب بطريق التخيل طقوس حرق ذلك الأمير المقيد بالسلاسل، للتعبير عن ذلك الموقف الرهيب والمأساوي، حين تحاول (بيبي فاطمة) عبثاً أن تحتفظ بشيء بسيط من رماد جثة زوجها.

كما كان لوجود السجن حضور في الرواية، ويظهر ذلك عندما رُجّ محمد شاه في السجن، بعد استيلاء الجيش الإنجليزي على مدينة هرمز في غفلة من البرتغاليين، كما اقتيد جميع المسلمين أسرى إلى ملك فارس، وأصبحت هرمز تابعة للاحتلال الإنجليزي، ثم جاء أمر العفو عن (محمد شاه) بعد عشر سنوات من السجن وأصبح قاضياً في صحار. "وفي إشارة الكاتب إلى الأماكن المختلفة المحددة بأسمائها وموقعها الجغرافي، كلّ ذلك من أجل تقرير الواقعية التاريخية على الأحداث، غير أنّ الكاتب استخدم التخيل الفني في وصف المكان وكأنّه مشاهد عياناً، يظهر ذلك في وصف مدينة هرمز بجميع تفاصيلها، ولاسيما القلعة البرتغالية، وأماكن العبادة المتنوعة (المساجد، والكنائس، وغيرها) التي تشير إلى التسامح الديني في هذه البيئة المختلفة الأعراق والمذاهب والديانات"⁴⁰.

4. المبحث الثاني: تقنيات السرد في رواية (بيبي فاطمة).

4.1. عتبات النص

4.1.1. عتبة العنوان:

تعدّ عتبة العنوان أهم العتبات في النصّ الروائي، وتكاد تجمع الدراسات بأن العنوان هو حلقة الوصل بين النص والقارئ، كما يختزل العنوان ماهية الرواية بداية الرواية، فلا سبيل إلى كتاب دون عنوان؛ لأنه يفقد التواصل بين الكتاب والقارئ، ربما يراها بعضهم ملخصاً للكتاب أو للرواية، ويراهم بعضهم ضرورة؛ ذلك "وعي العنوان على وفق هذه الرؤية

هو وعي ضروري بالغ الضرورة، وذلك لاستيعاب حساسية الاشتباك والتفاعل والمجاورة والتوازي بين نص المتن والنص الموازي له (عنوان النص)⁴¹، ويشير عنوان النص (بيبي فاطمة وأبناء الملك) إشارة واضحة إلى بطللة القصة وهي الأميرة فاطمة، وهذه الأميرة تحاول التشبث بملك هرمز الزائل في ظل الاستعمار البرتغالي، أما كلمة (بيبي) فهي كلمة عامية تعني (حبيبة)، فهي حبيبة والدها نور الدين، وقد خُففت من أجل التحبيب والتدليل.

وأما فاطمة: فهو اسم علم عربي مؤنث، ومعناه: هي التي تطفم عن الرضاعة، كما أن لاسم فاطمة عمق ديني؛ لارتباط الاسم باسم فاطمة الزهراء بنت الرسول - ﷺ -، ونجد في مجريات أحداث الرواية اعتزاز فاطمة بنسب الرسول في بعض المواقف والمشاهد، كما حدث في موقف حريق جسد زوجها، "تجر بيبي فاطمة أولادها بين تلك الحشود من البشر بيدٍ، واليد الأخرى ترفع مصحفاً وبصرها إلى السماء، وهي تدعو ربها، قائلة: إلهي. أنا بيبي فاطمة، حفيدة رسولك...إلهي بحق رسولك الكريم. أن تنزل أقدامهم... وتحطم جيوشهم"⁴².

وأما عبارة أبناء الملك: ففيها إشارة إلى العلاقة التي تربط بيبي فاطمة مع أبناء الملك (فروغ شاه)، وأن هذه العلاقة التي غلب عليها الودّ في فترة ما، ستنقلب إلى علاقة توتر وصراع بعد أن حاول أحد أبناء الملك الزواج من بيبي فاطمة على الرغم من رفضها بشدة. ويمكننا القول بأن عنوان الرواية يحمل انزياحاً أسلوبياً في كلمة (بيبي)، لأنّ غرابة هذه الكلمة هي أحد عناصر المفاجأة والتشويق في الرواية؛ وسيكتشف القارئ بعد ذلك أنّ معناها الحبيبة فاطمة بطللة الرواية.

4.1.2. عتبة الغلاف

صورة الغلاف لها أهمية كبيرة في تحفيز القارئ وشدّ انتباهه؛ فهي أول ما يواجه القارئ، وهي يمثل الوجهة الإعلامية للكاتب، وغالباً ما تكون فيها إشارة قوية لماهية الكتاب أو مضمون الرواية، فلم يعد الغلاف مجرد تعبير عن ماهية النصّ الأدبي أو عنوانه فقط، بل فيه إحياءات ودلالات عن محتواه. و"على الرغم من أهمية المصمم في عملية تصميم أغلفة الكتب - ولا سيما ذات الطبيعة الإبداعية منها - فلا بد لكي تكون قراءة عتبة الغلاف صالحة نقدياً أن يكون للمؤلف دور مهم في بناء هذه العتبة بأي شكل من الأشكال، حتى تكون القراءة مبنية على حقيقة تدخل وعي المؤلف في صوغ عتبة الغلاف بما يعتقد ملائماً للموضوع"⁴³.

ظهرت في غلاف هذه الرواية فتاة جميلة عربية كما تدل عليها الملابس الشرقية وهو قميص (الملايو)، وكان اختيار اللون الأحمر فيه دلالة على الحروب والدماء التي تواجهها الفتاة في المنطقة، وتقف هذه الفتاة على زاوية من القصر كما نرى على وجهها سطوع الشمس وبعضاً من الظل، وذلك يدل دلالة واضحة على أنها تحاول رؤية النور في محاولة للتمسك بمملكتهما، وعدم ضياعها وسقوطها، كما لوقوفها في قصر يطل على البحر دلالة على أنها أميرة، ووجود السفن ذات الأشعة دلالة على الحياة الاقتصادية المزدهرة، وهو يدل على مكان الرواية وهي جزيرة، ولا يغفل صورة اليمين، حيث تضع الفتاة يداً على أخرى، وفيها دلالة على الثقة بالنفس والرغبة في التماسك والاتحاد. كما كان لوجود نوع من أنواع الديكور الإسلامي الذي يعرف (بالاريسك)، وهو فن الزخرفة العربية، الذي يتكون من خطوط منسوجة مع بعضها، ومنحنيات مرتبة ترتيباً هندسياً، وقد تحتوي على خليط من الطيور والحيوانات في تشابك هندسي، وهو نمط من أنماط الفنون والعمارة الإسلامية العريقة، ويدل ذلك على عراقة المنطقة والأصول الإسلامية الممتدة فيها.

4.1.3. عتبة التقديم

تعد عتبة التقديم من العتبات المركزية، ولها أهمية بالغة في الرواية، وتأتي بعد العنوان مباشرة وتكون مركزة ومختزلة وواضحة في صفحة كاملة تساعد القارئ على فهم مجريات الرواية، و"تأتي العتبة التقديمية في الكتاب على قدر كبير من الاختزال والتركيز والوضوح والمقصدية المعلنة بقوة إحاطة وتشخيص عالية، ومن ثم السعي الحثيث إلى التوصيل والإقناع بتشكيل مساحات تلق معينة ومحددة، يجمع فيها الكاتب رؤيته للتاريخ المعين والمحدد وسبيل روايته معاً"⁴⁴.

جاءت المقدمة موجزة لكنها اختزلت كثيراً من المعاني، ولها دلالتها الخاصة، وذكر فيها المؤلف أن "هذه الرواية تحكي قصة امرأة طموحة، تنشب بحكم ملوك هرمز الزائل في ظل الاحتلال البرتغالي لمملكة هرمز، مع عدم إغفال الأوضاع العسكرية والسياسية والاقتصادية"⁴⁵، وعندما يذكر المؤلف في المقدمة أن القصة أحداثها حقيقية، فهو ينبه القارئ إلى أن الرواية ليست متخيلة كما في الروايات الأخرى، كما يعزز الكاتب صدق هذه الأحداث، بأن مصادرها أجنبية وأغلبها باللغة البرتغالية، ولم يكن مصدر الرواية هو السماع كما في بعض الروايات التي تناقلتها الألسن، كما تشير المقدمة إلى وضع الاحتلال البرتغالي، وقد حرص الكاتب - كما ذكر في السابق - على التمهيد والتدقيق في التاريخ؛

ليظهر لنا النص بمظهر التشويق بعناصره الفنية، بأسلوب سردي قصصي شائق، مستلهمًا أحداثه من وحي التاريخ. وبالجملّة نخلص إلى أنّ "في عتبات هذا النصّ إشارات ودلالات واضحة إلى الأهداف المعلنة للمؤلف، وتتلخّص في سرده الفنيّ لقصة حقيقية بطلها امرأة، عاشت في بقعة مكانية مليئة بصراعات كانت تحركها قوى داخلية وأخرى استعمارية خارجية"⁴⁶.

4.1.4. عتبة الخاتمة

هي عتبة خروج للنص حيث تبلغ الرواية خاتمتها، ولكن ذلك لا يعني نهايتها، ليظل القارئ مرتبطاً بالنص حتى بعد وصول الكاتب إلى نقطة التوقف وفيها رؤية الكاتب وبعده في تصوير موقف بطلة الرواية، التي يلقي الضوء عليها في أصالتها والمحافظة على مبادئها، رغم الظروف التي مرت بها، كما يعزز البنية التاريخية في ذكر الأحداث التي مرت بها الرواية، موضحاً دور الاستعمار ومطامعه في المنطقة، الذي كان له الدور الواضح في القصة من خلال تنصير الشباب، وفرض عقوبات ومحاكمات على الأمراء، مما أدّى إلى انقلابات وتشتت في العائلة المالكة، وهو ما نراه في تصوير بيبي فاطمة في نهاية القصة كأنها جبل ثابت بعد سنين من سجن زوجها (بعد عشر سنوات، تم العفو عن الملك محمد شاه أبا نصر، وخرج من السجن رجلاً محطماً، قد ضعف بصره، يشاهد شبح امرأة واقفة، ثابتة كالطود، أمام السجن، وشامخة بأنفها.. ويسائل نفسه: من؟! من؟! ويتيقن من الشبح: إنها حبيبة نور الدين! حبيبة فاطمة! بيبي فاطمة! والحقيقة إنها: طالقة فيروز شاه، وأرملة توران شاه، وزوجة محمد شاه، زالت مملكة هرمز. وزال معها الاحتلال البرتغالي. وعاشت بيبي فاطمة ومحمد شاه أبا نصر لاجئين في أصفهان بقية عمرهما)⁴⁷

وعندما ألقى الكاتب الضوء على خاتمة القصة إنما أراد أن يوصل الفكرة في الثبات على الموقف، والتأكيد على أحقية المكان، والانتماء والولاء لهذه الأرض، حتى لو دفع الإنسان نفسه فداء لها.

4.2. بداية الرواية ونهايتها

تعد بداية الرواية من العناصر المهمة التي تظهر لنا وتكشف عن رؤى الراوي، فقد قدّم الكاتب رؤيته التاريخية من خلال السرد بالتركيز في بداية روايته على الموقع الجغرافي للمنطقة وأهميته التجارية التي أصبحت مطعماً للقوى الاستعمارية، "عند مدخل الخليج العربي، توجد مسافة تبلغ حوالي خمسة وأربعين ميلاً، تفصل بين ساحل شبه جزيرة العرب

وفارس، وتوجد بعض الجزر الصغيرة، وتعتبر جزيرة هرمز الجزيرة الرئيسة والأكبر بينها.... تقع هرمز عند خط العرض 27 شمالاً، على مسافة تسعة أميال من الساحل الفارسي، وثلاثين ميلاً على ساحل شبه جزيرة العرب⁴⁸.

تظهر الأحداث والصراعات الكثيرة في ظل الاحتلال البرتغالي الذي غالباً ما يفرض سيطرته على المنطقة، ويبدو ذلك ظاهراً في قلاعهم ومدافعهم المنتشرة في المنطقة، ومنع استخدام الأسلحة، وحصر استخدامها فقط على الجيش البرتغالي.

لقد خصص المؤلف لخاتمة الرواية نهاية مأسوية للصراع الاستعماري على المنطقة، وتمثل ذلك في نهاية مملكة هرمز بسبب الصراع الداخلي بين حكام المنطقة، والتكالب الاستعماري الي كان من نتيجته استيلاء الإنجليز على المملكة المزدهرة بعد تحالفهم مع الفرس، فقد "سلم البرتغاليون القلعة للإنجليز في الثالث من شهر مايو عام 1622م، ودخلوا عبر الأجزاء المتهمة من الجدار. بعد أن وعدوا بالحفاظ على أرواحهم. وقد تم تسليم المسلمين من أهالي هرمز للقوات الفارسية كأسرى، وكان من بينهم ملك هرمز (محمد شاه)، وزوجته الملكة بيبى فاطمة، وابنها من زوجها السابق توران شاه، الذي أعدم حرقاً، وكذلك كان معهم وزير هرمز، ريس نور الدين بن شرف الدين، وقد استولى الفرس على جميع ما لديهم من أموال"⁴⁹.

4.3. لغة السرد

ذكر ميخائيل باختين في حديثه عن الرواية وتعدد الأساليب في كل جيل، أن "في كل فترة تاريخية من الحياة الأيديولوجية واللفظية، يمتلك كل جيل داخل فئة من فئات المجتمع لغته، فضلاً عن ذلك باختصار فإن كل عهد له لهجته ومعجم مفرداته ونسقه في التميز الخاص، وهي بدورها تتباين حسب الطبقة الاجتماعية والمؤسسة المدرسية"⁵⁰.

قد طغى الأسلوب الخبري على الرواية؛ فهي رواية تاريخية بامتياز؛ كما أن الكاتب يريد الإخبار عن حقائق تاريخية مخفية تخص هذه المنطقة، والكشف عن مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية التي مرّت بها، وقد استخدمت بعض الأساليب الإنشائية الطلبية في حوارات مختلفة. وقد استهل الكاتب في روايته بذكر موقع مدينة هرمز وأهميتها في الخليج العربي وتوسطها، وكونها ممراً للأساطيل البحرية؛ حيث تعتبر أهم ميناء في الخليج العربي، وذكر أهمية المكان في التجارة رغم شح المنطقة، وذكر التفاصيل الدقيقة من التجارة والحياة الاجتماعية، "وهكذا أصبحت هرمز قبلة تستقبل جميع السلع التي تأتي من الهند

من أي مكان، لتأخذ طريقها إلى مختلف الأماكن والبلدان في العالم، حتى الفلفل، والذي حظي بالكثير من الحظر، كان يصل إلى هرمز، إذ تمر كميات كبيرة منه عبر البحر الأحمر؛ ليتم توزيعها في الجزيرة العربية، وكذلك تأتي بقية السلع، التي يتم تصديرها إلى مختلف بلدان العالم⁵¹.

ساد السرد المرسل أو السرد التتابعي في معظم الرواية؛ حيث جاءت الرواية على نحو منطقي من خلال السبب والنتيجة، وكان ضمير الغائب هو المستخدم غالباً في الرواية، وقد قدم روايته باللغة الفصحى من خلال أسلوب يتسم بالوضوح في تركيبه، وسهولة تدفق عبارات على لسان راويه، وبألفاظ دقيقة الدلالة في التعبير عن الأحداث أو مجمل الأفكار التي يريد تقديمها⁵².

لم يعمد الكاتب كذلك إلى تضخيم المواقف إلا فيما ندر، وكانت الحوارات قليلة في بعض المواقف، ربما ليكون الكاتب أكثر مصداقية وأكثر موضوعية، وظهرت أغلب الحوارات في هيئة مخاطبات رسمية بين الحكام وبين ما ينوب عن حاكم البرتغال، بصفتها مستعمرة لجزيرة هرمز، ومن هذه المحاورات، "عندما بعث الملك فروغ شاه بكتابة رسالة، بتاريخ الرابع عشر من شهر إبريل عام 1598م، وبعث بها إلى نائب ملك البرتغال في الهند (دي فرانسيسكو دا جاما): وإني شاكر لفخامتكم لأنكم تتذكرون ابني الأمير محمد شاه، وأعتقد أنه رجل سيفعل ما ينبغي عليه فعله كتابع جيد.. وبما أنني أوليه هذه الثقة، فإنني أرجو من فخامتكم الموافقة على تعيينه في مكاني حسب رغبة شعبي. والبرتغاليون المقيمون في هذه المدينة معجبون به للغاية أيضاً، وهو يتمتع بالصفات الضرورية للمنصب"⁵³.

من أمثلة ذلك عندما ارتفع صوت سيدة النساء بعدما عرفت بتسليم الحكومة ل(فيروز شاه) " مصيبة، مصيبة"، وعندما عرفت أن (فيروز شاه) أراد أن يخاطب (بيبي فاطمة) قالت: "هذا العبد يتزوج بنتي؟! عبد من عبيد القصر يتزوج بيبي فاطمة؟! والتي جدها كسرى؟! وهو جدي صاحب المجد؟! وأبوها نور الدين حفيد الحسن ابن الإمام علي وفاطمة بنت محمد رسول الله؟! والتي سميت ابنتي عليه؟! حفيدة محمد رسول الله تتزوج العبد؟! أبداً لن يحصل هذا"⁵⁴. ومن الحوارات القصيرة الحوار الداخلي (المنولوج) الذي دار على لسان (بيبي فاطمة) وهي تدعو ربها، وكأن الكاتب يريد أن يؤكد أنها لم تنتصر، وهي تقول عندما أحرق جسد زوجها، وتحمل المصحف في يدها وتدعو ربها: "إلهي أنا بيبي فاطمة حفيدة رسولك.. إلهي بحق رسولك الكريم أن تزلزل أقدامهم وتحطم جيوشهم"⁵⁵.

كانت "اللغة التقريرية المباشرة هي الطاغية على الجانب الأسلوبي للرواية، وهي مناسبة في هذا الجنس الأدبي الذي يهدف إلى تحقيق غايات تاريخية، من أجل التواصل مع هذا الموروث للتعاطي ولأخذ العبرة من أحداثه وشخصياته، وتتميز هذه اللغة بالوضوح واستخدام الألفاظ الدالة على الحقائق المجردة، كي يتمكن القراء على اختلاف مستوياتهم من إدراكها ومعرفة دلالتها من خلال بنيتها السطحية"⁵⁶.

5. خاتمة:

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج:

1. تطورت الرواية التاريخية الإماراتية واتّضحت معالمها السردية في القرن العشرين، وقد تأثرت بالمذاهب الأدبية والفنية السائدة في الوطن العربي.
2. تعدّ رواية "بيبي فاطمة وأبناء الملك" إحدى الروايات التي سردت أحداثاً تاريخية حقيقية في الفترة بين (1588-1633م)، مستندة إلى عناصر السرد وتقنياته المختلفة. وركّزت الرواية على سرد مادة تاريخية عن مملكة (هرمز)، وعن الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أدت زوال هذه المملكة بعد فترة من الاستقرار والازدهار.
3. تعددت الشخصيات في الرواية، وكان لها أثرها البارز في التشكيل السردية، وكان لشخصية البطلة (بيبي فاطمة) حضور واضح في أحداث الرواية، لكونها الطرف الأهم الذي كافح للحفاظ على مملكة هرمز.
4. تكشف الرواية عن مجريات الأحداث بدقة عالية مع إبراز انفعالات الشخصيات، والتركيز على الأحداث الرئيسة باعتبار أهمية الحدث في الرواية، كما أسهمت الأحداث التاريخية السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الكشف عن التاريخ الخفي لهذه المنطقة.
5. تعدّ بنية الزمن عنصراً مهماً في الرواية، على اعتبار أن الرواية تسرد أحداثاً تاريخية حقيقية، والملاحظ في الرواية تتابع الأحداث وفق تسلسل زمني، كما استخدم المؤلف تقنيات في السرد الزمني منها (المشهد والوقفة) إلى تبطؤ حركة الأحداث، واختزال بعض المواقف.
7. تمثلت بنية المكان في الرواية من خلال توظيف أبرز مكانين: مدينة هرمز، وقصر الملك، حيث دارت أغلب الأحداث، وقد حرص المؤلف على وصف المكان مع ذكر الأماكن المفتوحة والمغلقة.

8. أسهمت عتبات النص (العنوان، والغلاف، والمقدمة) في الكشف عن الأهداف المعلنة للكاتب، كما دلت بصورة واضحة على الشخصية الرئيسية في الرواية، والبقعة المكانية المليئة بالصراعات التي تحركها قوى داخلية وخارجية.

مراجع البحث وإجالاته:

- 1 انظر ترجمته الكاملة في كتاب: "مصر تروي قصة سلطان الوفاء الشيخ الدكتور سلطان القاسمي"، محمد مؤنس عوض، نور حوران للدراسات والنشر، دمشق 2020م، ص 13-43. وانظر: الموقع الخاص للشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي في شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت).
<http://sheikhdrsultan.ae/default.aspx>
- 2 القاسمي، الشيخ سلطان بن محمد، بيبي فاطمة وأبناء الملك، منشورات القاسمي، الشارقة (الإمارات) 2018م، ص 7.
- 3 ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1992، مادة (سرد).
- 4 لحميداني، حميد، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء، 1997، ص 45.
- 5 برنس، جيرالد، قاموس السرديات، ط 1 ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2003، ص 122.
- 6 يقطين، سعيد، الكلام والخبر، ط 1 المركز الثقافي، الدار البيضاء، 1997، ص 19.
- 7 نورالدين، صدوق، البداية في النص الروائي، دار الحوار، اللاذقية، 1994، ص 32.
- 8 بوعزة، محمد، تحليل النص السردي، منشورات الاختلاف، الجزائر 2010، ص 76.
- 9 لحميداني، بنية النص السردي، ص 47.
- 10 نفسه، ص 47.
- 11 نفسه، ص 48.
- 12 القاسمي، سلطان بن محمد، بيبي فاطمة وأبناء الملك، منشورات القاسمي، الشارقة 2018م، ص 29.
- 13 نفسه، ص 80.
- 14 بطاهر، بنعيسى، روايات الشيخ سلطان بن محمد القاسمي مقارنة نقدية تحليلية، جامعة الشارقة، الشارقة، 2021، ص 86.
- 15 القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص 29.
- 16 بطاهر، روايات الشيخ سلطان، ص 88.
- 17 القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص 26.
- 18 بطاهر، روايات الشيخ سلطان، ص 82.
- 19 القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص 12.
- 20 القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص 67.

- 21مرتاض، عبد الملك، نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص172-173.
- 22بطاهر، روايات الشيخ سلطان، ص92.
- 23القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص14.
- 24القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص15.
- 25نفسه، ص77.
- 26نفسه، ص81.
- 27القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص115.
- 28نفسه، ص119.
- 29بشرى، جماليات الزمن في الرواية، ص31.
- 30بطاهر، روايات الشيخ سلطان، ص92.
- 31فاطمة، تقنيات السرد في الرواية الإماراتية، ص301.
- 32بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1990، ص32.
- 33القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص15.
- 34نفسه، ص14.
- 35نفسه، ص11.
- 36نفسه، ص13.
- 37نفسه، ص14.
- 38نفسه، ص40.
- 39نفسه، ص16.
- 40بطاهر، روايات الشيخ سلطان، ص95.
- 41عبيد، محمد صابر، الذات الساردة: سلطة التاريخ ولعبة المتخيل، دار نينوى، سورية 2013، ص33.
- 42القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص84.
- 43عبيد، محمد صابر، الذات الساردة، ص442.
- 44نفسه، ص37.
- 45القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص7.
- 46بطاهر، روايات الشيخ سلطان، ص82.
- 47القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص122.
- 48نفسه، ص11.
- 49القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص119.
- 50باختين، ميخائيل، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات، المغرب، 1987، ص61.

- 51 القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص19.
- 52 صبري، عبدالفتاح، الرواية الإماراتية (وقائع الملتقى الأول للرواية)، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة 2003، ص52.
- 53 القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص42.
- 54 نفسه، ص49.
- 55 القاسمي، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ص84.
- 56 بطاهر، روايات الشيخ سلطان، ص96.

قائمة مصادر ومراجع البحث:

1. باختين، ميخائيل، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات، المغرب، 1987م.
2. بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، ط1 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1995م.
3. برنس، جيرالد، قاموس السرديات، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2003م.
4. بشرى، عبد الله، جماليات الزمن في الرواية، ط1 منشورات ضفاف، بيروت، 2015م.
5. بطاهر، بن عيسى، روايات الشيخ سلطان بن محمد القاسمي: مقارنة نقدية تحليلية، ط1 قسم النشر العلمي، جامعة الشارقة، 2021م.
6. بوعزة، محمد، تحليل النص السردي، ط1 منشورات الاختلاف، الجزائر 2010م.
7. صبري، عبدالفتاح، الرواية الإماراتية (وقائع الملتقى الأول للرواية)، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة 2003م.
8. صدوق، نورد الدين، البداية في النص الروائي، ط1 دار الحوار، اللاذقية 1994م.
9. عبيد، محمد صابر، الذات الساردة: سلطة التاريخ ولعبة المتخيل، دار نينوى، سورية 2013م.
10. عوض، محمد مؤنس، مصر تروي قصة سلطان الوفاء الشيخ الدكتور سلطان القاسمي، نور حوران للدراسات والنشر، دمشق 2020م.
11. فاطمة، خليفة، تقنيات السرد في الرواية الإماراتية، بحث منشور ضمن وقائع الملتقى الأول للرواية الإماراتية، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، 2003م.
12. القاسمي، سلطان بن محمد، بيبي فاطمة وأبناء الملك، ط1 منشورات القاسمي، الشارقة 2018م.
13. الكردي، عبدالرحمن، الراوي والنص القصصي، ط1 مكتبة الأدب، القاهرة 2006م.
14. لحميداني، حميد، بنية النص السردي، ط1 المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1997م.
15. مرتاض، عبدالملك، نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت، 1998م.
16. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1992.
17. يقطين، سعيد، الكلام والخبر، ط1 المركز الثقافي، الدار البيضاء، 1997م.